التطور التاريخي لأخلاقيات العمل

لقد عرف تطور الأخلاق عموما وأخلاقيات العمل خصوصا العديد من المحطات التاريخية، التي جعلتها تتشكل وتتطور بفعل الأحداث والظروف الاقتصادية التي عرفتها كل مرحلة، وهذا على النحو الآتي:

أولا- تطور أخلاقيات العمل قبل ميلاد الفكر الاقتصادي:

يرجع تاريخ ظهور الأخلاقيات كممارسة إلى ظهور البشرية، ذلك أن الصواب والخطأ ،العدل والظلم ،الجيد والسيئ، الصالح والمفسد ...كلها صفات وجدت مع ظهور أول إنسان وهو سيدنا آدم عليه السلام الذي كان أول من وضع أمام اختبار الاختيار بين الخطأ والصواب.ومنذ ذلك التاريخ عاشت البشرية بجميع أطيافها هذا الاختبار، لذلك تطورت الأخلاقيات من ممارسة إلى مفهوم وتعتبر مدونه حمو رابي من أقدم المدونات التاريخية التي قدمت مجموعه من القواعد و الواجبات في العمل و كذا الإجراءات العقابية في حالة عدم الالتزام بها.

وبعد ذلك توالت الحضارات الإنسانية (الإغريقية،اليونانية،البابلية،المصرية....) على ترسيخ الأخلاق كمفهوم استمد قدسيته أولا من الديانات السماوية، وثانيا من القامات الفلسفية العظيمة على شاكلة أفلاطون و أرسطو الذي اهتم بفكرة المدينة المثلى التي يتحقق فيها العدل.

1- **الأخلاق عند الحضارات:**

- **الحضارة البابلية:** إن أقدم مدونة تاريخية قانونية وجدت منذ أكثر من 4000سنة في وادي الرافدين وهي مدونة حمو رابي، التي قال عنها جون سارتون بأنها احد المعالم البارزة في التاريخ البشري، فهذا القانون تضمن 282مادة اشتملت إرشادات وقواعد للتجار وواجبات المهنيين كالبنائيين والأطباء وغيرهم وكذا العقوبات المترتبة عن مخالفة هذه الواجبات ، وبهذا يعتبر البابليون أول من اهتم بالأخلاق المهنية. وان دل ذلك على شيء فانه يدل على وعي الإنسان منذ القديم بضرورة تقنين أخلاقيات المهنة.

- **الحضارة الرومانية:** ترجع أصالة الرومان في تفكيرهم الاجتماعي والسياسي إلى الدور الكبير الذي لعبته روما في تطبيق المبادئ القانونية والسياسية والإدارة العامة تطبيقا عمليا في الشعوب التي أخضعوها. ولهذا أتصفو بالصرامة في الخلق، وقوة العزيمة وخضوع تصرفاتهم لنظام دقيق في ظل القانون. وقد أقام الرومان انساقا من القوانين، اعتبرت مقياسا للتنظيم الاجتماعي في العالم الذي عرفوه، هدف الجميع فيها هو تأدية الواجب مما يؤدي إلى العظمة وسيادة الوطن، والتي تحكم تصرفاته في الأسرة، المجتمع والعمل. ونستنتج من ذلك أن الرومانيين أصحاب فكرة الدولة العظمي فيشقى أفرادها من اجل عظمة هذا الكيان.

- **الشرائع السماوية:** كان المجتمع قبل نزول الشرائع السماوية في حالة من الفوضى والفساد والظلم ، وجاءت الديانات السماوية لعلاج هذا المجتمع ووضع حد للفوضى التي تنخر في البناء الاجتماعي والقضاء على الفساد الذي كان سائدا منذ بدء التاريخ سواء الفساد الاقتصادي ، السياسي ، والطبقية التي كانت آنذاك. ففي ظل تقهقر الإمبراطورية الرومانية والفارسية ومع بداية القرن السابع الميلادي ظهر الدين الإسلامي بشبه الجزيرة العربية، وهو ما جرف البشرية

نحو تيار جديد من التعاملات الاقتصادية الرشيدة، حيث اعتبرت الحضارة الإسلامية نموذجا للتسيير القويم والرشادة في التعامل وبهذا يعتبر ظهور الإسلام حدث تاريخي أثر بقوة على سيرورة الأنشطة الاقتصادية وأردف بها مفهوم الأخلاقيات في الدين والمعاملات.

2- الأخلاق عند فلاسفة الإغريق:

لم يترك سقراط (399-470 ق.م) مؤسس الفلسفة الغربية، مؤلفات في الفلسفة والأخلاق، ولكن محاوراته مع تلاميذه وعلى رأسهم أفلاطون (348-424 ق.م) في السياسة والدين والحب والفضيلة والمعرفة، أثّرت في تأسيس وإثراء الفلسفة اليوناينة، فبدؤوا في دراسة الأخلاق كأحد فروع الفلسفة، والتي تم توسيع معناها ليشير إلى العادة أو الشخصية أو طريقة التفكير أو المزاج.

أما تلميذه أفلاطون فتعامل مع الأخلاق من وجهات نظر وسياقات مختلفة، وأدار عدة حوارات حول الأخلاق بما فيها الفضيلة والرذيلة، واللذة والألم، والجريمة والعقاب، والعدالة. وهو يرى أن "الخير" هو الشكل الأسمى الموجود بطريقة ما حتى "ما وراء الوجود". وفي كتابه "الجمهورية" تحدث عن الأخلاق الفردية على أنها عدالة الروح.

ليأتي بعده تلميذه أرسطو (322-384 ق.م) ويكتب العديد من الرسائل حول الأخلاق، والتي اعتبرها دراسة عملية وليست نظرية، تهدف إلى أن يصبح الشخص جيدا ويقوم بعمل الخير. ويرى أرسطو أن الفضيلة لها علاقة بالوظيفة المناسبة لشيء ما، فالعين ليست سوى عين جيدة بقدر ما تستطيع الرؤية، لأن الوظيفة المناسبة للعين هي البصر. رأى أرسطو أيضا أن البشر يجب أن يكون لديهم وظيفة خاصة بهم، وأن النشاط الأمثل للروح كهدف لكل عمل إنساني متعمد، تُترجم عمومًا على أنها "سعادة" أو أحيانًا "رفاهية".وللحصول على إمكانية أن تكون سعيدًا، يتطلب الأمر بالضرورة شخصية جيدة، تُترجم على أنها فضيلة أو امتياز أخلاقي أو أخلاقي.

ويرى أرسطو أن تحقيق شخصية فاضلة وسعيدة يتطلب مرحلة أولى من امتلاك الثروة التي يجب التعود عليها ليس عن قصد، مما يؤدي إلى مرحلة لاحقة يختار فيها المرء بوعي القيام بأفضل الأشياء. وأكد أن جميع الكائنات الطبيعية تميل إلى أداء وظائفها الخاصة، ومحاولة تحقيق إمكاناتها بالكامل، وأن الخير يتألف من إنجاز تلك الوظائف. كما يرى أن الأفعال المختارة بحرية يمكن أن تكون أخلاقية، في حين أن الأفعال الإلزامية ليست أخلاقية.

- الأخلاق في ظل سيادة الكنيسة (ظهرت في العصور الوسطى):

فترة العصور الوسطى رسخت الأخلاقيات في البعد الديني ذلك أنها تعتبر فترة تعاظم نفوذ الدولة الإسلامية من جهة وتشكل النظام الإقطاعي من جهة أخرى، فقد برزت في ظل هذه الفترة ربط السياسة والاقتصاد بالدين.

ففي ظل تقهقر الإمبراطورية الرومانية والفارسية ومع بداية القرن السابع الميلادي ظهر الدين الإسلامي بشبه الجزيرة العربية، وهو ما جرف البشرية نحو تيار جديد من التعاملات الاقتصادية الرشيدة حيث اعتبرت الحضارة الإسلامية نموذجا للتسيير القويم والرشادة في التعامل. وبهذا يعتبر ظهور الإسلام حدث تاريخي أثر بقوة على سيرورة الأنشطة الاقتصادية وأردف بها مفهوم الأخلاقيات في الدين والمعاملات.

ومن جهة أخرى كانت المسيحية هي المرجعية الدينية المميزة لأوربا الإقطاعية في القرون الوسطى، وبالذات "الكنيسة الكاثوليكية"التي مارست سلطة كبيرة على الأفراد ماديا ومعنويا، ما مكنها من مضاعفة ممتلكاتها وبالتالي استطاعت التدخل في تنظيم علاقات الناس وسلوكهم على الأراضي، فضلًا عن تنظيم الشرائع وتنظيم الأمور الدينية للناس.
وقد اجمع الكثير من المؤرخين أن الكنيسة لعبت دورا بارزا في التأثير على الفكر الإقطاعي وتأثير مباشر على أفكار الاسكولائيين بما فيها الاعتبارات الدنوية والأخروية.
وقد كانت الكنيسة مؤسسة أممية إذ لم تظهر الدول القومية بعد بأوربا، ولم توجد سلطة أخرى تنازع سلطة رجال الدين وبهذا أدت الكنيسة دورا أساسيا في توثيق واستقرار ووحدة قارة أوربا في القرون الوسطى.

وقد اتسم الفكر الاقتصادي في أوربا أين سيطرت الكنيسة، بما يلي:

- لم يخلق بعد ما عرف لاحقا بعلم الاقتصاد ،ذلك أن التفكير الاقتصادي لم يكن مبنيًّا،التحليل العلمي، وإنما وجهته مبادئ الدين والأخلاق، ولذلك كانت أفكار القديس توماس الإكويني تمثل قمة النضوج الفكري في العصور الوسطى.

- أن الكنيسة فرضت الكثير من القيود على النشاط الاقتصادي وحذرت الناس من الانقياد إلى دافع الحصول على الثروة والربح إلا أن الاكويني"، حاول أن يوفق بين المعتقدات الدينية والنشاط الاقتصادي.

- أن أسس التفكير الاقتصادي، في أوربا في تلك الفترة، كان متسقًا من هذه الناحية، مع طبيعة الحياة الاقتصادية الراكدة.

- انتشار أفكار الكنيسة الحياة الأخلاقية هي طاعة القانون أي "الواجب الإلهي".

انتهت الفترة الإقطاعية بمحاولات إصلاحية تقاوم نفوذ الكنيسة وتحاول تنظيم الحياة الاقتصادية من خلال فصل الدين عن السياسة وظهر الاقتصاد كعلم قائم بذاته تحت مسمى الاقتصاد السياسي وبحلول القرن السادس عشر أصدر عالم الاجتماع الألماني max weber :كتابه تحت عنوان "الأخلاقيات البروتستانتية وروح الرأسمالية " والذي وظف فيه القيم الدينية لصالح الاقتصاد وأوضح أن العوامل الأساسية للأخلاقيات هي: الاجتهاد،الانتظام، أولوية ميدان العمل، تأجيل الرغبات.

ثانيا- تطور أخلاقيات العمل بعد ميلاد الفكر الاقتصادي:

نتيجة استبداد رجال الدين وانتشار الفساد والانحلال الأخلاقي بينهم ، برزت حركة الإصلاح الديني التي عملت على القضاء على سيطرت الكنيسة وثم من خلالها تحطيم الصلة القوية بين

الدين والأخلاق وتم خلال هذه الفترة التوجه إلى فهم الأفكار البشرية من خلال توظيف العقل والعلم.

1- الاقتصاد الحديث:

رأت المدرسة الاقتصادية الكلاسيكية والتي من أشهر روادها :A. Smith وMalthus وRicardo، أن الشؤون الاقتصادية شأنها شأن عامة الأشياء الطبيعية الموجودة في الكون محكومة بقوانين طبيعية، ومن الضروري اكتشاف هذه القوانين والانسجام معها، وأن تترك وشأنها تعمل ذاتيا دون تدخل يعيقها، فعملها الذاتي كفيل بأن يحقق أفضل النتائج. وتستقي المدرسة الكلاسيكية شعارها هذا خاصة من أعمال A. Smith، حيث يقول : ما إن سعى كل واحد إلى تحقيق مصلحته الخاصة، فإنه من شأن "اليد الخفية" لقوى السوق أن تعمل من خلال الضبط الذي تولده المنافسة على تعزيز مصلحة المجتمع كله. حيث يتبين لنا من هذه الرؤية ما يلي:

- المصلحة الذاتية: هي القوة المحركة

- اليد الخفية: هي التي تدفع الأفراد إلى العمل

- المنافسة: هي من يلجمهم من فرض الأسعار الفاحشة

ولذلك. فان ما قدمه A. Smith للفكر الاقتصادي هو القدسية التي أحاط بها المصلحة الخاصة، أين ابتعدت الأنظار عن النوايا الأخلاقية والالتزامات الاجتماعية للأفراد، وتوجهت الرؤى للنتائج "غير المقصودة"، حيث يظهر مفهوم "الإنسان الاقتصادي الرشيد" الذي أصبح محور علم الاقتصاد الحديث، والذي مصلحته الذاتية هي المنبع الذي تصدر عنها أفعاله.

2- ظهور الثورة الصناعية ودعم الاعتبارات الفردية:

سمحت الثورة الصناعية بإقامة مصانع، حيث لم يعرف العالم المؤسسات الكبيرة التي تنتشر الآن إلا بعد قيام هذه الثورة، والتي تنتج مئات وآلاف الوحدات في اليوم، إذ يحتاج مصنع واحد منها إلى عشرات ومئات العمال، فساعدت بذلك الثورة الصناعية في اختراع أجهزة تسمح بإقامة مؤسسات ذات حجم معتبر، من حيث عدد العاملين وكمية الإنتاج ومقدار رأس المال....الخ، الأمر الذي كان له الأثر في تبين مسائل أخلاقية مهمة، إبتداءا من وضعية العاملين أو ما سمي بالطبقات الكادحة، والذي على إثره برز تيار جديد مدافع عنه مناهض للتيار الليبرالي الذي يعتمد فقط على النظرة المالية للمؤسسة.

3- ظهور الاشتراكية ودعم الاعتبارات الجماعية:

عرف القرن التاسع عشر في أوربا مذهبين مجابهين متمثلين في : الليبرالية التي تدعم الرأسمالية كنظام اقتصادي والاشتراكية كنظامين سياسيين، أثرا على سيرورة المؤسسة في كثير من الدول، وقد جاءت الاشتراكية بقيادة أشهر روادها Karl Marx(1883 - 1818) للدفاع عن حقوق الإنسان وكذلك حياة العامل في المؤسسة، بعد سطوة الرأسمالية في الكثير من الدول وما خلفته من آثار اقتصادية واجتماعية على المجتمعات. وقد مثلت الماركسية في منتصف القرن

الماضي رد فعل قوي على تيار الرأسمالية. حيث ظهرت مطلع القرن العشرين النظرية الماركسية التي خلقت نموذجا لفهم الفرد والمجتمع وتفاعلهما. وجه بذلك k.Marx نقدا جذريا للمؤسسة كمكان للمواجهة بين العاملين الكادحين والبرجوازيين، وأنها خالية من الخلقية، كما قدم من خلال تحاليله انتقادا للرأسمالية الصناعية في قمة تطورها والتوسع المتزايد للسلع الذي قام بفضل استغلال العمال.

4- أزمة الكساد العالمي:

أدت فترة الكساد الاقتصادي عقب الحرب العالمية الأولى وإتباعها بانهيار بورصة نيويورك في عام 1921 – 1923 إحداث تغييرات مجتمعية واسعة أدت إلى ظهور أخلاقيات مجتمعية حلت محل الأخلاقيات الفردية، وعلى إثر هذه الأزمة جاءت مناهج جديدة مثل نظرية J. M. Keynes التي تنادي بتدخل الحكومة لكبح وضبط الطلب، ولقد أدت هذه الأحداث إلى تفاعلات مجتمعية نتج عنها ظهور فلسفات ومفاهيم وأسس ومبادئ جديدة لنقل الاتجاه من حركة الإدارة العلمية وتركيزها القصري على كفاءة العامل الإنتاجية ووحدة التنظيم، والاتصال من أعلى إلى أسفل، إلى الحركة المجتمعية لإيجاد عامل الرضا للعامل من نفسه لدفعه إلى الإنتاج من قرارة نفسه.

وعليه، ابتدأت دراسات وبحوث تجسدت في نظرية العلاقات الإنسانية التي تختلف قليلا عن نظريات البيروقراطية والإدارة العلمية والنظرية العملية الإدارية. غير أن هذه الدراسات تميزت بعدم التعمق بحقيقة الدور الإنساني في الإدارة، وقد لجأت إلى التعميم والمبالغة، حيث تتشارك بصفة عامة مع النظريات الكلاسيكية في تركيزها على التخصص وتقسيم العمل، تسلسل السلطة، الهيكل التنظيمي الرسمي ونطاق الإشراف.

ثالثا- التوجهات الجديدة لأخلاقيات العمل

1- بروز مفهوم الأداء الاجتماعي للمؤسسات:

يمثل نموذج المسؤولية الاجتماعية قاعدة ألداء المؤسسة الاجتماعي، الذي يستخدم الأبعاد الأربعة. فلقد أفضى تطور مفهوم المسؤولية الاجتماعية منذ سنوات الـ 50 حتى سنوات الـ 2000، لظهور مفهوم الأداء الاجتماعي للمؤسسة. وتجدر الإشارة إلى أنه في الأدبيات المرتبطة بالمسؤولية المجتمعية للمؤسسة، فإن المؤلفين الأساسيين في هذا المجال: A.Carroll (1979)، S.L.Wartick(1985)، D.J.Wood (1991) لا يعرفون على وجه التحديد الأداء الاجتماعي للمؤسسات، حيث يعتبر بالنسبة لهم كتنفيذ للمسؤولية الاجتماعية والسؤال حول تقييمه لا يناقش إلا على مستوى نظري، أين يترك للبحوث التطبيقية العلاج العملياتي للمفهوم. ويترجم بقدرة اهتمام المؤسسة بالمجال الاجتماعي.

2- بروز مفهوم التنمية المستدامة:

يستند مفهوم التنمية المستدامة عادة على ثالث ركائز هي : اقتصادية، اجتماعية وبيئية، حيث يجب على المؤسسة ضمان التوازن بين هذه الأبعاد الثلاثة : العدالة الاجتماعية، والحفاظ على البيئة وكفاءة الاقتصاد، وهو ما يمثل الأقطاب الثلاثة المترابطة للتنمية المستدامة للإنسانية: الناس، الكوكب، الربح .

3- إدماج أخلاقيات الأعمال أكاديميا

حملت فترة الـ 90 من القرن العشرين وما بعدها صدور مؤلفات في مجال الأخلاقيات مرة أخرى في علوم التسيير مثل مؤلف : Reidenback& Robin 1990الذي تناول نظرية أخلاقيات التسويق وتطورها، باقتراح مقاييس للأخلاقيات، وضرورة توافر معايير أخلاقية لها. وقد ظهر تيار مهتم بتدريس الأخلاقيات وضرورتها وتعزيزها أكاديميا مثل Dietrich وآخرون 1992، Pitts1999، حيث أضحت مظهرا من مظاهر الاهتمام بأخلاقيات الأعمال في الولايات المتحدة الأمريكية، مثلما بين Stark 1993بأن هناك 500 مقرر دراسي عن أخلاقيات الأعمال تدرس بالجامعات الأمريكية، وما يقرب من 90% من مدارس إدارة الأعمال تجري تدريبات حول هذا النوع من الأخلاقيات، كما يتوفر 25 مرجعا دراسيا حولها، بالإضافة إلى 16 مركزا لأخلاقيات الأعمال على الأقل حتى 1993 وكراسي خاصة بأخلاقيات الأعمال في العديد من الجامعات الأمريكية)، كما أن ثلاث أرباع المؤسسات الأمريكية حاولت بشكل فعال ونشيط أن تتبنى أخلاقيات لها.